

مكابدات الشجر الرومانسية توجها جماليا

■ إياد كريم

يمكن للمعابنة التحليلية في مجموعة مكابدات الشجر للشاعرة بشرى البستاني الصادرة حديثا عن دار الشؤون الثقافية ببغداد أن تكشف تجليات متقدمة للاستثمار الرومانسي والاشتغال على موجهاته وصوره ومفرداته والانتقال بالتالي من الرومانسية المجردة إلى أسلبة هذا النزوع وتأطيره والخروج بالعرض إلى مجموعة من المعاني والأفكار والدلالات.

إن القصائد الست التي تضمنتها المجموعة تنضوي على صياغة أدائية تحمل الكثير من ملامح المغايرة والإفادة من نمط شعري وتوجه محدد والارتقاء به والتحليق باستعاراته في أفق روماني يوجي بما يمكن تسميته بالرومانسية المضادة اي ان القصائد وان كانت تتقمص أردية وفضاءات التحليق الرومانسي ، لكنها في النهاية لا توجي بتكريس قصدي باتجاه الارتداد إلى هذا النمط من الشعر الذي لم يعد بكل الأحوال يعبر عن الواقع المعاصر المتفجر بالاحتدامات والمخاضات والمغلف بأسوار الآلية واللوغاريتمات الصماء .

إن شفافية الشاعرة ووعيمها المتعالي قادها إلى هذا التوظيف والتوغل في ملاذات العذوبة الغنائية، بيد أنها وعبر تحولات ونقلات اسلوبية داخل كل نص استطاعت ببراعة الإفلات من هيمنة الرومانسي باتجاه الانفتاح على أغراض وثيمات معرفية باستخدام رموز تاريخية - شخوص وأمكنة - لتأسيس نص غنائي غير منغلق على ذاته ، ارتكزت نصوص المجموعة على طاقة من الشفافية والتعبيرية الصورية التي حازت على إقامة اتصال دائم من التلقي ما يلبث أن يتحول إلى منحيات تبتعد عن أفخاخ القصيدة الرومانسية لتتبدى رويدا رويدا إيقاعاتها التي تعكس منظومة من الإحالات والموجهات لتصبح الرومانسية وسيلة من وسائل تعرية الواقع وإدانة وقائعه وليست مجرد نزوع ذاتي يستعذب المفردة

والصورة والخيال الخصب .

تأملُ اشتغالات الشاعرة يكشف عن تأنق المفردة و حساسية انتقائها والاهتمام بموسيقى التفعيلة ليس للسقوط في الوجد الذاتي والتضخم الأنوي بقدر السعي إلى جعل القصيدة بحساسيتها وشفافيتها تعمق الإحساس بفجعية ومأساوية الوقائع التي تتعالق معها وتشتبك مع احتمالاتها ، فضلا عن سحب القصيدة من فضائها المخملي إلى ملامح وآفاق قصيدة الحرب والانتقال من الرثاء الذاتي إلى الرثاء الجمعي لاسيما في قصيدة (أحزان الغضا) التي تضمنت تناغما بارعا مع قصيدة مالك بن الريب المشهورة في رثاء النفس ، فإذا كان مالك بن الريب يبدأ قصيدته باستعادة ذكرياته في ارض الغربة فان الشاعرة تستهل قصيدتها بتصوير صوفية اغتراب الذات عن المحيط .

في قصيدة (قصيدة العراق) نجد توظيفا لرومانسية عذبة متوهجة ابتعدت عن الحماسة التي تفقد الشاعرية ألقها حين تحشرها في توجهات المقال وأدلجة الفكرة لتدع الفكرة نابضة داخل الشعرية :

تلوب الطيور ...

الجبال ، الجبال

الجبال تؤرقني ،

وتلفّ بأغصانها جرح روحي

الجبال صبايا تجز صفائرها الطائرات ..

تحتل قصيدة (الأسوار) حيزا مؤثرا بين قصائد المجموعة لما تحمله من رؤية عميقة وشفافة للحياة والوجود ومكابدات الذات في صراعها مع كل صنوف الاستلاب ، وتمثل قصيدة (بانتظار القصف) نموذجا لقصيدة الحرب التي تتناول هذه الموضوعة بعيدا عن الصخب التعبوي لهذا جات تكريسا لنظرة بهية في النظر للذات والأحداث وهي تتشظى في ظل صفارات الانذار وازيز الصواريخ بينما جسدت قصيدة (موسيقى عراقية) توجهها جماليا لكتابة قصيدة تعتمد التنويعات الاسلوبية وصولا الى الفكرة الكلية لتصل ذروتها في بؤرة النص حيث تبوح الشاعرة ب :

كل الجبال تصلي على جرحنا

والمر ..ايا شهود ..

وتشكل (قصيدة بابل) ارتحالا مضمخا بالاحتفاء السري في التنقيب في
احراش التاريخ لاستشراف المكان وهيمنته المقدسة :

من بابل تتصاعد الألواح
نحو قيامة المجد التليد ..
لتكشف عن نزوعها الرومانسي على مستوى الصورة الإستعارية في :
هذا أوان الرقص
هل خبت الشموع ،
وهل تكسرت المرايا ..
زمرُّ سبايا ...
يتسكع التاريخ في دمها
فتعلن سرها ،
زمرًا ... سبايا ..
هذا أوان الرقص ،
هات يديك ، خبيِّ دمعتي ..

تمثل مجموعة مكابدات الشجر عزفا منفردا يكرس توجهها جماليا ومعرفيا
مضادا للرومانسية المجردة والمنطوية على خطاب متمركز حول مبعوثات الذات
لتؤسس تطلعا ورؤية تفاؤلية تنطلق من انحياز الشاعرة الى قيم الخير و الحق
والجمال التي تشكل في فناعة الشاعرة مركز الثقل في مجمل المشهد الإنساني .
جريدة العراق ، صفحة النافذة الثقافية ، في ١٢ / ١٢ / ٢٠٠٢ للعدد ٧٧٧٩
يوم الخميس .